

الاستشراف وأثره في الفكر الإسلامي

أصول ، ظواهر ، شخصيات

بقلم الدكتور محمد بشقرون

عرف الفكر الإسلامي في تاريخه القديم و الحديث تطورات مختلفة، وتأثر بمؤثرات متنوعة، فخضع في هذا التطور وهذا التأثير إلى عوامل داخلية، وأخرى أجنبية، وخارجية، تفاعلت فتداخلت أو تكاملت أو تناقضت حسب الظروف والملابسات، والنتيجة هي ما نشاهده اليوم و ما نلمسه في ظواهر خاصة إيجابية وسلبية في شتى الميادين وخصوصا في ميادين العلم و المعرفة.

ومعنى ذلك أن الأمر يتعلق هنا بالبحث عن العلاقة بين الإسلام والاستشراف عند العرب والمسلمين وأعمال المستشرقين، ونتائج ذلك كله بالنسبة للفكر الإسلامي، فما نوع هذه العلاقة أو العلاقات؟ ما تأثيراتها؟ أو بصفة أدق ما هي الأصول والظواهر والشخصيات التي تستحق الذكر في هذه الدراسة .

يشير مثل هذا الموضوع في الظروف الراهنة كثيرا من العناية لما تعرفه الأمة العربية الإسلامية من تطورات خاصة وما تجتازه من أزمت حادة، أزمت النمـز والتأصيل والبحث بصفة سريعة عن معالم الهوية الثقافية الحقيقية، السلبية أو "الناتئة"، المفقودة"، المرتبكة أو "المشبوهة"، وتقعيد هذه المعالم وتأصيلها مرة ثانية، في عمر الأحداث الدولية الآنية، العسيرة والعصيبة، عبر أمواج هائجة، متلاحمة بسرعة خارقة للعادة، نتيجة تفاعلات مقصودة ومؤامرات مدبرة، ومخططات محكمة، وتكتلات مدروسة لتوحيد الصفوف، صفوف أقلية، ومجموعات بشرية ترتبط فيما بينها

بروابط معينة، كتلة الدول الشرقية وكتلة الدول الغربية، كتلة الدول ذات الأنظمة الاقتصادية الحرة... إلى غيرها من الكتل والأحلاف القديمة والحديثة الغاية منها تكوين جبهات قوية و حصون منيعة، وحدود فاصلة لا يمكن اختراقها وتجاوزها إلا بشروط محددة مفروضة ووسائل وإمكانات وتنازلات معينة.

وهو أيضا موضوع غزير المادة، متعدد الأطراف ومتشعب الفروع، متداخلها، ومتكاملها أحيانا، ومتناقضها أحيانا أخرى، وهو قديم رغم حداثة بعض مظاهره، وجديد رغم جذوره، وضربها في أعماق التاريخ وثبات بعض سماته؛ ذو أبعاد نظرية وعملية، وذو حيوية وحساسية حادة في كثير من الظروف والأحيان لارتباطه بمقومات أمة واصطدامه بشخصياتها الأساسية وتناقضه مع كثير من مبادئها السياسية وأصولها الراسخة.

وهو إلى ذلك بحث من شأنه أن يعيد إلى النفوس والأذهان كثيرا من الذكريات المتضاربة والمتباينة، المنبعثة من تجارب طويلة ومرة، يثير أنواعا شتى من النفور والاشمئزاز، والغیظ وسوء المعاملة ذكريات قاسية شاذة عنيفة على مستوى اللفظ والعبارة، وعلى مستوى التركيب والتنسيق وعلى مستوى المعاني، بل على مستوى المصطلحات التي أصبحت في هذا الباب مرددة، شائعة واكتسبت صيغة حضارية وثقافية، وما ذلك كله إلا لاتصال هذه وتلك - كما أسلفنا - بماضي وحاضر الأمة الإسلامية وتطوراتها المستقبلية وتفاعلاتها الإثنوغرافية والإثنولوجية، واحتكاكها مع أمم أخرى لها ثقافتها المختلفة، وخصوصيتها وأهدافها القريبة والبعيدة.

ومما يدل على أهمية الموضوع وخطورته، والدلالة على المهموم التي يثيرها والقضايا التي يطرحها، قضايا الساعة، على صعيد الوطن العربي الإسلامي وعلى الصعيد الدولي والعالمي، هو ما تعكسه بعض الصحف والمجلات وما تنقله إلينا توصيات المؤتمرات والندوات بل وما تحفل به البحوث المختلفة عبر المقالات

"الملفات" والمؤلفات المفردة والمستقلة وما تسجله من جهود فردية وجماعية في هذا المضمار، يكفي لأخذ فكرة وجيزة عن ما نشير إليه، أن تلقى نظرة سريعة على بعض العناوين الرائجة والأسئلة المطروحة، والهموم التي تشغل بال الباحثين من العرب المسلمين وغيرهم من الأجانب "المستشرقين عبر مؤلفاتهم أو مداخلاتهم وما ينشرونه من حين لآخر عن طريق وسائل الإعلام التقليدية أو الحديثة أو غيرها .. فإليك نموذجاً من هذه العناوين التي نسوقها كأمثلة دالة "الاستشراق والتبشير وصلاتهما بالإمبريالية العالمية"⁽¹⁾، "المستشرقون والإسلام"⁽²⁾، "المستشرقون بين أغراضهم الدينية والسياسية"⁽³⁾ "أغلاط المستشرقين"⁽⁴⁾. "تراثنا الثقافي بين يدي المستشرقين"⁽⁵⁾ "جهود المستشرقين في نقل الثقافة العربية"⁽⁶⁾، "نفع المستشرقين أكثر من ضررهم"⁽⁷⁾ "المستشرقون وضررهم على الإسلام"⁽⁸⁾ "ضرر المستشرقين أكبر من نفعهم"⁽⁹⁾ "الحركة الصليبية وأثرها على الاستشراق الغربي"⁽¹⁰⁾ "الاستشراق مشكلة معرفية أم مشكلة اعتراف بالآخر"⁽¹¹⁾ "الاستشراق في أزمة"⁽¹²⁾ "لم الاهتمام بالاستشراق؟"⁽¹³⁾ "مساهمة المستشرقين في نشر التراث الإسلامي"⁽¹⁴⁾ "المبشرون والمستشرقون وموقفهم من الإسلام"⁽¹⁵⁾ "ماركس ونهاية الاستشراق"⁽¹⁶⁾ "المشارق النقيضة أو رؤية الآخر وفقاً للذات"⁽¹⁷⁾ "إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث"⁽¹⁸⁾ "الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي"⁽¹⁹⁾ "الاستشراق والمشرقون ما لهم وما عليهم"⁽²⁰⁾ "سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية"⁽²¹⁾ "التبشير والاستعمار في البلاد العربية"⁽²²⁾.

إن اللائحة طويلة جداً، ولا يمكن حصرها في هذه الفقرة التي يقصد منها بيان نوع التوجهات والاختيارات والإحساسات كما أسلفنا، وهو معيار يجعلنا مؤهلين للتحكم فيما يصدر من أقوال وما نبديه من تحفظات وملاحظات حول

الاستشراق وأثره إنها أمثلة كافية، على ما نعتقد، لجعل الاستشراق والمستشرقين في "قفص الاتهام" رغم تعميم الأحكام وإطلاقها بدون تحفظ في كثير من الأحيان، من لدن كثير من المؤرخين والباحثين، وحتى في بعض البحوث والمؤلفات التي لا تعالج موضوع الاستشراق بصفة منقوضة بل تتناول حسب عناوينها محاور أخرى، نراها تميل نفس الميل فتعبر صراحة، بمناسبة أو بأخرى، عن نفس الاتجاه وتقف نفس الموقف بل كثيرا ما تجد في هذه المراجع الثانوية ما لا تجده في غيرها من إشارات وحقائق وأحكام جديرة بالبحث والدراسة وقد تظنها هادئة، ساكنة، مهادنة ومسالمة، وقد تظنها منشغلة عن الموضوع الذي يهكم بأشياء أخرى منصرفة إلى معالجة قضايا تاريخية أو اقتصادية صميمية فإذا بها تعرج وتستطرد وتفاجئك بمواقف ومعلومات وردود فعل لا تخلو من فائدة وأهمية، سلبية وإيجابية - بالنسبة لما أنت بصدد معرفته حول الاستشراق والمستشرقين، فالقضية قضية منهجية بالدرجة الأولى في هذا النوع من المؤلفات التي أشرنا إليها. فالعناوين غالبا ما تكون خداعة. و الباحث الفاحص والحذر هو الذي يتبع بكامل الدقة ما في "ثنايا السطور وما يكمن في السياق وخلف الفقرات والفصول، فلنأخذ مثلا على ذلك من كتاب "المستشرقون" لركرياء هاشم⁽¹⁾ أو " حياة محمد" لمحمد حسن هيكل⁽²⁾ وكتاب " المستشرقون" لنجيب العقيقي⁽³⁾ و مؤلف محمد البداق في "حجة النبي"⁽⁴⁾ هؤلاء سلكوا تقريبا نفس المسلك وأصدروا نفس الأحكام في كثير من الأحيان رغم أن اهتمامهم كان منصبا بالدرجة الأولى على إصدار تراجم معينة أو على إبراز معالم من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

وإذا حاولنا أن نستخلص بعض النتائج من هذه البحوث والمؤلفات التي سقنا منها أمثلة محدودة نرى أنها في أغلبها تناصب المستشرقين العداء الصريح وتدينهم

وبكل شدة وتنسب إليهم كل قهمة وتوجه إليهم كل مثلبة وتنعتهم بأبشع الألقاب وأقبح الصفات وذلك في تعميم شامل ملفت للأنظار ومثير للدهشة.
وإذا بالمستشرقين كلهم أعداء الإسلام، أعداء الله ورسوله، أعداء اللغة العربية، أعداء الثقافة الإسلامية، والحضارة والأمة، والتراث، أعمالهم تخريبية، ومواقفهم شيطانية سامة كلها شر ووبال وطامة !!

كما يستفاد من العنوان المذكور أن الاستشراق مرتبط أشد الارتباط بالتبشير والنصرانية، والاستعمار، والسياسة الاستحواذية، والهيمنة الاقتصادية، والقضاء على خيرات الأمة العربية الإسلامية، المادية منها والفكرية، الفنية المعمارية وإذا كنا لا نريد أن نناقش كل رأي من هذه الآراء لنبين مدى مبلغها في الصحة والواقعية ومدى مبالغتها في إصدار أحكام قاسية فإننا في انتظار الوقت المناسب لذلك، نقوم بملاحظة أولى وهي ضرورة الغربة و التمييز والفحص والقيام بعملية النقد العلمي الذي يضع كل شيء في ميزان العدالة و الإنصاف لينال كل ذي حق حقه وينسب لزيد ما لزيد ولعمرو ما لعمرو، وكما يقال فالنقد المنهجي يقتضي عملية تحليل ومقاربة، نزيهة، القصد من ورائها إفراز العناصر الإيجابية والعناصر السلبية التي تكون في مجموعها الوحدة المدروسة، وحدة الشخص، أو وحدة التأليف، أو الوحدة التراثية المعروضة إذ ذاك، وبهذه الوسيلة يمكن التعرف، بكامل التجرد على ما تنطوي عليه المادة المفحوصة، وتلافي كل نقص، كل إفراط أو تفريط في الأحكام الصادرة.

ومعنى ذلك أننا سنجد لا محالة عند هذا المشرق أو عند غير ما يطابق الحقيقة وما يخالفها، سنجد في مؤلفه أو في قوله، في نفس المؤلف أو في نفس القول عناصر تسير مع الحق وأخرى تخالف الصواب وتسير مع الأهواء، والترعات، والأغراض والشهوات المشوهة للحقيقة، عناصر كلها مجتمعة متعايشة متساكنة، ولو بنسبة متفاوتة إذ تتغلب العناصر الإيجابية على العناصر السلبية أو العكس. فالإنسان مهما

كان شريرا، ومهما بلغت قوته وشدته فلا بد أن تجد له "نقط ضعف" قد يعرض بها ما ارتكبه من أخطاء أو أغلاط، فيرجع إلى الصواب ويهتدي إلى الطريق "ويخلف ما ضاع" فهو إذن يتأرجح بين الحق والباطل حسب الظروف والأحوال، الأحوال الاجتماعية والأحوال الثقافية، أحوال ثقافته وطبعه ومزاجه، وأحوال الضغوط التي تمارس عليه من لدن بيئته، فأقواله وأفعاله تتأثر بهذه العوامل وغيرها عن قصد أحيانا وعن غير قصد أحيانا أخرى، فيصدر أحكاما ثم ينفىها بين الأمس واليوم فيقع في تناقض مع نفسه ومع غيره، فيقوى ثم يضعف الخ..

لذلك يجب تتبعه في كل هذه التطورات لإدراك كنهه لمعرفة صوابه وأخطائه والحكم على إنتاجه في هذا الميدان أو غيره بدلا من التسرع والانسياق وراء أفكار مسبقة أو آراء ضاغطة مستوردة أو مبتساة على أسس غير سليمة لا عن طريق دراسة مركزة فاحصة.

والإنتاج الاستشراقي ينبغي في نظرنا، أن يدرس تبعا لهذه المنهجية، ذلك أن كثيرا من المستشرقين الذين عرفوا بالتحيز والتعصب وتشويه الحقائق في بعض بحوثهم ومؤلفاتهم قد تراجعوا في مؤلفات أخرى عن غيهم في بعض الأحيان في نفس المؤلف. وانقادوا إلى الصواب وتداركوا أخطاءهم أو بعض أخطائهم على الأقل، فأصلحوا ما افسدوا واستدركوا ما فاتهم، وظهروا أو تظاهروا متجردين ميالين إلى الحق وحده.

ذلك لأنهم تطوروا في مواقفهم وفي أفكارهم وعواطفهم، نتيجة ظروف معينة، كما أسلفنا فكيف يمكن والحالة هذه أن نصدر بحقهم أحكاما مطلقة، جازمة عامة، مجرد الاطلاع على جزء من إنتاجاتهم أو قراءة بحث من بحوثهم أو الاستماع إلى قول من أقوالهم، لنقول عن إنتاجهم كله بأجمعه، "هو شر كله".

والأمثلة الدالة على ما نذهب إليه كثيرة ومتنوعة، أمثلة قديمة وحديثة، نستمدّها من كتابات ماكسم رودنسون (MAXIME RODINSON) ⁽¹²⁾ ومن مؤلفات أرناالديز (R ARNALDEZ) ⁽¹³⁾ و من أبحاث (V.MONTEIL) قبل اعتناقه الإسلام وغيرهم من المستشرقين الذين اشتهروا بالانحراف، أو بالاستقامة، فلا بد للإنسان من زلة" و لا بد له من كبوة" ولا بد أنك واجد في أعمال هؤلاء وغيرهم ما يفيد إفادة مباشرة أو غير مباشرة، مقصودة، متعمدة أو غير متعمدة أنجزت لتحقيق غاية منشودة فكانت بالنسبة لنا وسائل نافعة. ففي هذا الميدان خذ مثلاً المستشرق المشرق الهولندي أ.ى . ونسك (A.JWENSINCK) صاحب " المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي" ذلك العمل الضخم والبيان الشامخ الذي يقع في ثمانية مجلدات من الوزن الثقيل فهو رائد في عمله هذا وإن كنا نعلم أنه قام بإنجازه بمساهمة مجموعة من المستشرقين، لقد تطلب هذا العمل من الوقت أكثر من عشرين سنة !

وهو عمل لا يقدر حق قدره إلا الباحثون وذوو الاختصاص ومع ذلك فهو إنتاج تضلع بإنجاز أكبر قسط منه مستشرق (WINSINCK) نعت بأقبح النعوت وأبشع الصفات من لدن بعض الباحثين المحدثين ⁽¹⁵⁾ بسبب موقفه من الحديث النبوي الشريف وافترائه وتضليله. فبالإضافة إلى العمل الذي نوهنا به نظراً لفائدته الكبرى بالنسبة للباحثين والمتخصصين في علوم الحديث رواية ودراية ومصطلحا الخ.. نشير إلى أن للمستشرق نفسه آثاراً أخرى لها بدون شك قيمتها رغم ما يشوبها من شوائب وما يعترئها من خلل وزلل منها "موقف الرسول صلى عليه وسلم من يهود المدينة" و"الإسرائيليات في الإسلام" و"قيمة الحديث في الدراسات الإسلامية" إلى غيرها . فمساهماته كثيرة ومتنوعة وهو بدون شك قد سقط فيما سقط فيه غيره عن قصد وسوء نية، وعن خطأ وجهل بحقيقة الشريعة الإسلامية، وبعبقرية اللغة العربية، مبنها ومعناها، فيجب أن توضع أعماله كلها في

الميزان، ميزان النقد العلمي للحكم له أو عليه حسب نزواته أو غيره من ميادين المعرفة المتعلقة بالحضارة العربية الإسلامية وما قيل عن WINSINCK يقال عن غيره في هذا الصدد ولا يتأتى ذلك ولن يتأتى إلا بالرجوع لهذا الأثر الاستشراقي نفسه والانطلاق منه مباشرة وبدون واسطة أي بدون واسطة النقل والترجمة والرواية غير الصحيحة التي تبنى أحكامها على أحكام أخرى غير سليمة، لدراسة هذا الآخر دراسة مركزة موضوعية من لدن ذوي الاختصاص لا بقصد الانتقام والتشفي والتعالي بل لبيان الخطأ وتصحيحه وتعليقه وتقويم ما اعوج من الآراء والأفكار والأحكام التي صدرت عن هؤلاء المستشرقين في مختلف الاتجاهات وميادين المعرفة وفي نفس الوقت يجدر بنا أن ننوه بالأعمال التي تستحق التقدير والتنبؤ.

وهذا مشروع من المشاريع التي يجب أن تحظى بعناية المسؤولين عن المؤسسات الثقافية والعلمية من الدرجة العليا لما يتطلبه إنجاز المشروع من وسائل وإمكانات ضخمة لا تتوفر لأفراد أو جماعات باحثين ومتخصصين وغيرهم من المهتمين لشؤون الثقافة والفكر على الصعيد الوطني أو على صعيد الوطن العربي الإسلامي بأكمله. ولا يسعنا بهذه المناسبة إلا أن نرحب بالجهود التي بذلها وببذلها معهد الإنماء العربي الذي أصدر عددا خاصا من مجلته "الفكر العربي" (في مجلدين عدد 31، 1983) تناول عدة جوانب من هذا الموضوع الذي يشغلنا، كما نرحب بمبادرة أخرى ثمينة قام بها مكتب التربية العربي لدول الخليج التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم حيث أصدر كتابا (في جزأين 1985) تحت عنوان :

"مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية" وهو عبارة عن مجموعة بحوث نقدية منهجية لمؤلفين مغاربة ومشاركة، وجديرة بالذكر هي أيضا الرسالة الجامعية "المتنبى في دراسة المستشرقين" التي تقدم بها إلى كلية الآداب بالرباط سنة

1987-1988، الباحث المغربي حسن الامrani للحصول على دكتوراه الدولة وهي دراسة تعالج قضايا نقدية تطبيقية بالدرجة الأولى في موضوع الاستشراق الأدبي.

وبقطع النظر عن ما ذكر، وبالإضافة إلى الملاحظات المنهجية السالفة، نرى من المفيد الإشارة إلى أن الاستشراق كان وما يزال موضوع دراسات مختلفة تتفاوت حجما وعمقا وتنصب على جوانب متعددة تتناول التاريخ والتراجم والعلاقات والحضارة، والفكر، والمنهج، والصورة، والرؤية، التأثير والتأثر الخ.. وهي بطبيعة الموضوع صادرة عن أجناب أوروبيين وغيرهم، تعددت لغاتهم أو نزعاتهم وثقافتهم واختلفت ألوانهم ومشاربهم، فأدلى كل واحد منهم بدلوه متأثرا بتكوينه وبيئته، وبالظروف السياسية، والاجتماعية، التي يجتازها، فتتج عن مساهمات هؤلاء كلهم أثر ضخم جدير بالجمع والتعريف والتبويب والفهرسة والتصنيف ضمن بليوغرافية شاملة مستقصية قدر الاستطاعة، وهي محاولة - قمنا بها لهذه الغاية - آملين أن يستفيد منها القارئ في نهاية هذه المحاولة المتواضعة...

وهكذا يتضح لنا من هذه النظرة الموجزة التي ألقيناها على بعض القضايا التي يطرحها الاستشراق في مجال الثقافة والفكر بصفة خاصة أن صراعات قائمة عقيدية ومذهبية، تختفي وراء الألفاظ والمصطلحات والأفكار الصريحة أو الملتوية، كما تعكس ذلك بعض العناوين والمحاور التي سقنا منها بعض الأمثلة. إن التعايش أمر لا مفر منه والتفاهم ضرورة حتمية لصالح الشعوب ولصالح الإنسانية مهما اختلفت أديانها ومهما تنوعت ألوانها، وتعددت أصولها ومنابعها، ذلك ما تقتضيه الشريعة الإسلامية في كل وقت، وفي كل حين، وفي كل وسط، وفي كل مكان!.. (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . وقوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) وقوله

عز وجل (أدم إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) النحل الآية 105 (ولا
تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتقوى هي أحسن) العنكبوت 46. وقوله صلى الله عليه وسلم
لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى" (مسند الإمام أحمد
ابن حنبل 411-15) .

ذلك أن الظروف وقد تغيرت، والأحوال قد تبدلت، وأساليب العيش وأنماط
السلوك قد تطورت، وبرزت ظواهر واختفت أخرى، أو سكنت وخذت إلى حين
وحدث ما كان في الحسبان وما لم يكن؛ فتقدمت مجتمعات وتخلفت أخرى، لأسباب
اقتصادية واجتماعية أو سياسية أو ثقافية أو هي جميعها أو غيرها من الأسباب
الراجعة إلى البيئات الإسلامية، مدى تشبثها بشريعتها الدينية والدنيوية؛ فاضطربت
المقاييس، واختلقت الموازين، وانقلبت القيم، فأصبح السلب إيجابا، والإيجاب سلبا،
والمرغوب فيه مرغوبا عنه، وأصبح الأستاذ تلميذا، والعكس صحيح !..

فنتج عن هذه التطورات ما نسمعه، وما نلخصه وما نلمسه، وما نعانيه مما
يصدمنا ويروعنا في مختلف الميادين المتصلة بحياتنا اليومية، وسائر مرافق مختلفة،
ونسب متفاوتة، في الأزمنة والأمكنة بين سائر الطبقات التي يعينها الأمر بهذه
الإشارة وفي هذه العجالة.

ولا عجب إذا أصبح التمايز، والتباعد، والتنازع، والتعالي، والتسامي من
السمات الغالبة، الداعية إلى الترتيب، والتصنيف والتفرقة، ومن ثم إلى إفراز كتلتين
كبيرتين منفصلتين أشد الانفصال، كتلة شرقية، وكتلة غربية، لكل منهما صبغة
خاصة، وحدود قائمة، ومعالم واضحة، ما أعظم الفرق بينهما، ولا رابط بينهما
سوى روابط الاختلاف، والتعارض، والتناقض في غالب الأحيان والتداخل
والتكامل في أحيان نادرة واستثنائية.

وإذا ما حدث حادث وطراً طارئ وانجذب الحديث إلى ذكرهما؛ ودعا لتناولهما بالوصف أو بالتحليل أو بتزويد القارئ ببعض المعلومات المتعلقة بوضعيتهما الحالية أو بنيتهما الماضية، أو أنظمتها السائدة، بصفة عفوية أو مقصودة جرى ذلك بقصد المقارنة، والموازنة والمفاضلة، والتنقيص والتقليل من الشأن، والمس بالسيادة، والخط من الكرامة، كأن الأمر يتعلق بمباراة أو بمصارعة ينتظر من ورائها التعجيز والتشفي، وإظهار الضعف، وإخفاء مكانم القوة، وطمس معالم الهوية، وذلك بصفة متعمدة كما أسلفنا، تنم عن سوء النية، وفساد الطبع، وانحراف السلوك، يتجلى ذلك في اختلاف الأسباب، واصطناع الأوضاع، واصطياد الظواهر والحوادث، وتكييفاً حسب الأهواء والنزعات المسيطرة، وصوغها في قوالب جاهزة، لتحقيق الأهداف الآنية والآجلة.

لذلك ليس من الغريب أن يجري الحديث في غالب الأحيان على جميع المستويات، ويتمحور حول محورين متقابلين عرف الأول منهما بـ"نحن" والثاني بـ"هم" أو بـ"نحن مقابل الآخر"!! فالآخر يعني في اصطلاح الكتلة "المتحضرة" كل عنصر بشري لا يمت إليها بصلة، ولا يدين بدينها، ولا يتمذهب بمذهبها ولا يعتنق إيديولوجيتها، ولا يسير في ركبها، ولا يؤمن بقيمها، ولا يفكر بفكرها، ولا يتحدث بلغتها، ليس من "عرفها" ولا من أصلها. فهو إذن من العناصر التي تنتمي إلى "الآخر" وتكون جزءاً عضويًا منه، ومن بنيتها المتميزة؛ فهو إذن في مستوى غير مستواها، ويحتل سلم الترتيب والرقى درجة أدنى، ومكانة أسفل. من الصعب بل ممن المستحيل أن تبلغ ما بلغته الأولى، نشأة، وتفكيراً، وسلوكاً ووجداناً وخلقاً وذوقاً وفناً وحضارة!...

وهكذا يؤدي الاعتراف القوي بالنفس، والشعور الحاد بالعظمة والغرور الناتج عن التمرکز حول الذات والأنانية الضيقة، والإنطوائية العرقية، والانغلاق على

النفس اللوامة والأمانة، والتحصن داخل أسوار حديدية مصطنعة، يؤدي ذلك إلى الجمود والاحتجاب وراء عوالم مظلمة، تقف حجر عثرة في وجه الإرادات الحسنة، وتحول دون رؤية الواقع، ومجابهة الحقيقة وملاحظة معطيات البيئة المحسوسة، وتدبرها بفكر ثاقب حصيف، ومشاهدتها بعين بصيرة، وصدر رحب، خال من الأهواء والعقد الضارة ومتجرد من العواطف الجامحة، والترعات الشادة، وسوء الظن للتشبث بالموضوعية، والتفرغ بكل إخلاص وصدق نية، وصبر وجلد لدراسة هذا "الآخر" واكتناحه، وكشف ما عنده من خصوصيات، وما يتوفر عليه من استعدادات، ومؤهلات، وطاقات وما يتميز به من قيم، وبنيات لتفهمه وإدراكه على حقيقته. وتقديره حق قدره، والتعرف على طبيعته، وسمات حضارته وثقافته اعترافاً بالفروق الفردية، والاختلافات الاجتماعية، الناتجة عن البيئة، أو عن الوراثة، أو عنهما معاً، وعن تفاعل الأحداث، والظروف، والملابسات، وعن التأثير والتأثر وقانون التطور والانتشار، والإيمان بقدرة الخالق المتصرف الوحيد في شؤون خلقه، وكونه، الواحد القهار الذي لا معبود سواه "وما تشاءون إلا أن يشاء الله".

بهذه الذهنية البرينة السليمة، والإرادة المستقيمة، يمكن استخلاص النتائج الضرورية، وتقييم العلاقات القائمة بين الأفراد والجماعات، وبين الشعوب والأمم، وبين الطوائف والأقليات، وإعادة النظر في هذه الرؤية، إلى هذه العلاقات، وفي تقدير القيم والمسافات لإرجاع التوازن المنشود، والبحث عن الضابط المفقود، والتحلي بالموضوعية والنزاهة، وذلك رغم انقطاع الصلة وانفصام عرى الصداقة وتباعد الشقة أثناء مدة اعتبرت وجيزة أو طويلة.

لو أدركت هذه الكتلة المشار إليها أعلاه بالعظمة والقوة لاختصرت المسافات الزمنية والمكانية، ولاهتدت إلى طريق مباشرة الواقع - كما كررنا - ومجابهة ما هو كائن لا ما ترغب أن يكون، ولترعت كثيراً من أفكارها الجاهزة، وأحكامها المطلقة

المعقدة، ولتخلصت من كثير من الأوهام والمعتقدات القاسية الضالة، ولقضت على العادات والتقاليد المنحرفة، التي تقف في وجه بناء صرح الحضارة الإنسانية، على الأسس التي أشرنا إليها، لا على أسس العرقية واللونية، على أسس التقوى والعبادة، والاعتراف للغير بحقوقه ودوره الديني في الاستخلاف والتعمير، ومباشرة نشاطه اليومي وممارسة عباداته ومعاملاته والتهيؤ لآخرته.

كل ذلك ما لا يحدث لو طبقت هذه المبادئ السامية، واحترمت القواعد الشرعية، وسارت الشعوب والأمم الإسلامية على نهج الطريق المستقيم، وتشبثت بالسنة النبوية، واعتصمت بحبل الله، ولم تتفرق..

ولكن الأمور آلت إلى ما هي عليه الآن، وجرت بما عبر عنه الشاعر العربي الأمير أبو فراس الحمداني :

لكنها الأمور تجري بما جرت فيسفل أهلها ويعلو الأسافل.

ونتيجة لهذه الظروف الخاصة، وهذه الاعتبارات الاجتماعية السلبية، الفارقة والمفرقة، طفا على سح الخطاب الكتابي والخطاب الشفوي، طفى على الألسنة والأقلام قاموس من المفردات والعبارات المتنوعة والمتعددة، والتي تحمل في ثياها من الدلالات والمعاني، والمفاهيم، والمقاصد والمرامي، ما ينبئ عن نوع الصراعات الظاهرة، المحتدة الشديدة، أو الخفية الساكنة، الباردة التي تحرك النفوس والأذهان والعواطف والوجدان، وتخلف الأفكار، وتنشئ الأفعال، وتصنع المواقف، وتقيم الحوار، أو تدعو إلى المقاطعة والمجاهمة، ويتعلق الأمر، كما سبقت الإشارة إلى ذلك بقضايا متداخلة ومتكاملة، قديمة وحديثة، رغم ظهورها في صيغ مختلفة، ورغم ضروب جذورها في أعماق تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، أو صبغتها بصبغة آنية، وانطباعها بطابع الحدة والفعالية والحدة !..

وهي مصطلحات كثيرة ودالة، رئيسية وفرعية صميمية، وهامشية، تتأرجح بين المركزية و الجانبية، فتحل مكانة الصدارة والبروز، أو ترجع القهقري، وتتخلف وراء سياج، أو داخل نسيج خلخته ظروف معينة، طارئة وعابرة، أو قارة ومستقرة. ومعنى ذلك بعبارة أخرى مقبلة... لذلك نكتفي هنا بإبراز أمثلة منها للدلالة على غيرها لا للحصر والإحاطة :

الإسلام والنصرانية؛ الإسلام والصليبية؛ الأصالة والمعاصرة، التراث والحدائث، الوحدة والازدواجية؛ الشرق والغرب؛ المشرق والمغرب؛ التشريق والتغريب؛ الاستشراق والاستغراب، العروبة والاستغراب، التعريب والتعجيم؛ الإسلام و العلمانية؛ الأصالة والغزو الثقافي؛ الغزو الفكري؛ الاستلاب الثقافي؛ التمزق الثقافي؛ الهوية الثقافية؛ "نحن" و"هم"؛ نحن والآخر؛ الطرف الآخر، حوار الشرق والغرب؛ صراع الشرق والغرب؛ تقدم وتخلف؛ تزمّت، وتفتح، تقدمية ورجعية؛ تعصب وتسامح؛ الإسلامية والمسيحية الأصولية (FONDAMENTALISME)، الصحوة الإسلامية RESURGENCE، سلفية سنية؛ إباحية تحليلية حيادية لائكية؛ مادية إلحادية؛ انفصالية؛ التمرركزية العرقية (ETHNOCENTRISME) توجد الهوية الدونية؛ علم الأصول العرقية، أو الدراسات العرقية (ETHNOGRAPHIE ETHNOLOGIE) الدراسات الإسلامية علم الإسلام ISLAMOLOGIE، كراهية الإسلام ISLAMOPHOBIE ؛ عالم متخصص في الدراسات الإسلامية ISLAMOLOGUE؛ كاره حاقد على الإسلام ISLAMOPHOBIE؛ المستقبلية FUTURISME علم المستقبل FUTUROLOGIE؛ العطف والتعاطف مع المسلمين : ISLAMOPHIBIE، عاطف متعاطف Islamophile؛ عروبة Arabisme Arabite.الدراسات العربية علم العروبة Arabologie عالم دارس العربية Arabologue، عربي

اللغة، Arabophone ، عاطف متعاطف مع اللغة العربية Arabophile كراهية العروبة والعرب Arabophobe حاقد على العربية والعروبة.

الشرقية الاستشراق الغربي الاستشراق العربي، الاستشراق الإسلامي، الاستشراق المعكوس، الاستشراق المضاد، الاستشراق السليبي، الاستشراق الإيجابي، الاستشراق النظري، الاستشراق العملي، الاستشراق العفوي التلقائي؛ الاستشراق الإرادي، الاستشراق القسري، الاستشراق الظاهر الصريح، الاستشراق الخفي المقنع المستتر، الاستشراق التمسحي، الاستشراق المدحي، الاستشراق القدحي، الاستشراق القديم المعاصر، الاستشراق التقليدي، الاستشراق العصري الحديث؛ الاستشراق الرسمي، الاستشراق الحر، الاستشراق الجماعي، الاستشراق الفردي، الاستشراق المذكر، الاستشراق المؤنث، الاستشراق العام، الاستشراق الخاص؛ الاستشراق الظرفي استشراق المناسبات؛ الاستشراق الكتابي، الاستشراق الشفوي، الاستشراق الأسود، الاستشراق الأبيض؛ الاستشراق التبشيري؛ الاستشراق النصي الحرفي، الاستشراق المكتبي التوثيقي، الاستشراق الميداني، الاستشراق الواقعي الاحتكاري، الاستشراق الخيالي، الاستشراق المصطنع، الاستشراق الموضوعي، الاستشراق الذاتي، الاستشراق المهجري، الاستشراق الوطني، الاستشراق المستقر، الاستشراق المتحرك، الاستشراق الثابت، الاستشراق المتطور، الاستشراق المتلون، الاستشراق الموضوع، الاستشراق الشعبي، الاستشراق النخبوي الخاص بعليّة القوم بأكابرهم ورؤسائهم، وأغنيائهم وذوي الجاه منهم... إلى غير ذلك مما نجده ونستخرجه من النصوص التي تعالج الموضوع الذي نحن بصدده، وهي نصوص عربية وأجنبية تختلف مصادرها وتتنوع مراجعها من مجتمع إلى آخر ومن زمان إلى آخر وتفاوت قيمتها من كاتب إلى كاتب ومن مؤلف إلى مؤلف آخر.

لم نراع في اقتباسها وإيرادها سوى قوة استعمالها وتوظيفها وكثرة تردها على الألسنة في جميع أنواع الخطب الرائجة في مجالات عدة وهي كما كررنا، جزء من كل، قصدنا من وراء إثباتها إعطاء فكرة واضحة واستخلاص نتائج معينة فعلى ما تدل؟ وما ترمي إليه؟ وما توحى به؟

إن أول ملاحظة نقوم بها ونحن نستعرض هذه "الألفاظ القوة" "الألفاظ المفتاح" في قراءة سريعة أو متأنية أنهما:

من حيث الشكل، من حيث التركيب والصيغة، تشتمل على ألفاظ سهلة بسيطة خالية من التعقيد والغرابة والحوشية، ألفاظ عربية قحة، ثم ألفاظ مولدة ودخيلة، تسربت إلى الشفاه وغرت قاموس اللغة العربية، بشيء من التعسف والانتشار والضغط الاجتماعي؛ نتيجة أحداث وظروف معينة، ونتيجة تفاعلات مستمرة أو متقطعة مع أقوام أجنبية.

وبفعل التأثير والتأثر أي "الثقافة المتبادلة" تحول جزء من هذه المفردات إلى لغات أخرى أجنبية؛ فخضعت لمقاييسها الاشتقاقية والتوليدية فوظفتها بعد تكييفها مع مقتضيات عدة للتعبير عن المعاني الناشئة، الجديدة و المعطيات الحضارية المعززة وهكذا، عن طريق هذا النوع من الاتصال والتلاقي الجبري أو الاختياري تتبادل الأمم كثيرا من التجارب ويغني كل منها الآخر في مجالات معينة وإلى حد معين، أي مع توافر الشروط الضرورية، والتوازن المنشود، والاحترام المتبادل. وحتى في حالة اختلال هذا التوازن أو فقدانه أي في حالة الاستبداد والتصارع والغزو فإن كثيرا من المعطيات الحضارية والظواهر الاجتماعية ومنها بالطبع اللفظية تنتقل بصفة شعورية، وبصفة لاشعورية ولا إرادية، من مجال اجتماعي إلى مجال اجتماعي آخر، والعكس بالعكس أحب الطرفان أم كرها، إن التجربة في هذا الميدان حاضرة بيننا بقطع النظر عن الحقائق العلمية والنفسية والاجتماعية تجربة

الشعوب المستعمرة (بكسر الميم) والشعوب المستعمرة، شعوب المغرب العربي وغيرها، لدينا أمثلة محسوسة، ملموسة، مجسمة في الواقع اليومي وغيره، في مجال اللغة الدارجة ومجال اللغة الفصحى. فلقد نشأت عن طريق التعايش الازدواجي لغة ثالثة لا هي "بالعربية الفصحى ولا هي باللغة العربية الدارجة" فكثيرة هي الألفاظ والعبارات الأجنبية التي طغت على الألسنة واستبدت بكثرة في الأوساط والطبقات الواعية وغير الواعية؛ وكثيرا ما تنطق بها وهي غير شاعرة بل تراها مع الأسف الشديد، تلجأ إليها في ظروف خاصة و ظروف عادية فتستعملها وهي على المائدة أو في حديث ودي أو في الشارع.. غير ملزمة ولا مضطرة. وذلك رغم حملات التوعية المتوالية ودروس التعريب المنظمة من حين إلى آخر ودروس محاربة الأمية والضغوط المختلفة للمحافظة على الهوية الثقافية والشخصية الأساسية والإنسية المغربية وتخليص اللغة العربية لغة الأم والوطن مما يستهجنها ويحط من سمعتها ويقلل من شأنها، ويفقها توازنها ومكانتها الجديرة بها، وهي كما نعلم، لغة غنية غير عاجزة ولا متخلفة لغة حضارية وفكرية تؤدي أدق المعاني وتعبر عن ألطف الحقائق و المفاهيم لغة كانت ولا تزال علمية تسير المكتشفات الحديثة والمستجدات "التقنية والتكنولوجية" مع توفير المناخ اللازم، طبعا و تحضير الوسائل الضرورية وتجهيز المختبرات المختصة وهي قبل ذلك وبعده لغة القرآن الكريم، لغة العبادة، لغة اتصال المخلوق بخالقه، بذكر وحمده والثناء عليه ومناجاته...

وليس معنى هذا أن الأمر يتعلق بمحاربة اللغات الأجنبية كلا إنما في حاجة ماسة إليها خصوصا في الظروف الراهنة إنما بالعكس نحارب الإنطوائية والانعزالية، ونسعى بكل ما في استطاعتنا إلى توسيع وتنمية علاقتنا مع الشعوب الأخرى، المجاورة لنا، أو البعيدة، للتفاهم والتعارف وتبادل الخبرات، والمعارف. ولن يتأتى ذلك بالطبع إلا بإتقان لغة أخرى بل عدة لغات.

إن الاختصار على لغة واحدة هو في الحقيقة تقصير وتقاعس، بل تفكير واختزال.
إن ما نسعى إليه، مع اعتبار كل ما ذكر هو عدم التنازل عن المقومات
الوطنية الأساسية، والتضحية بعناصر الهوية الثقافية، والاستسلام في خضوع
وخنوع لثقافة غازية، أرادت أو تريد، بجميع الوسائل الممكنة، القهر والغلبة،
والقضاء على كل أثر من آثار الإنسية المغربية الإسلامية...

وما قلناه عن أنفسنا نقوله عن غيرنا، أي ما تسرب من ألفاظ وعبارات إلى
لغتنا وحديثنا، رغم إرادتنا فقد تسرب شيء مثله إلى غيرنا، رغم إرادة هذا
الغير، ورغم تعاليه وتساميه وترفعه، وازدرائه بالعناصر التبشيرية المحتكة به، لكن
بنسبة أقل ودرجة أدنى، وهذا شيء يعترف به، لعدم تكافؤ الفرص، واختلال
ميزان القوى، وعدم التوفر على نفس الإمكانيات، والوسائل والحظوظ، المادية
منها والمعنوية، النفسية والاجتماعية، الثقافية والاقتصادية.

تلك هي الصفات البنيوية، والسمات الشكلية والخلفيات الاجتماعية لهذه
المصطلحات المعروضة.

أما من حيث المعنى فإن ما يغلب عليها هو طابع التعارض والتقابل
والتناقض، ثم إلى درجة معينة، طابع الترادف والتكرار، وذلك ما يدل على
إلحاحها، والدور الرئيسي الذي قامت وتقوم به، والحيز الذي شغلته وتشغله
والمجالات التي استأثرت بها، والتأثرات التي أحدثتها، والنتائج التي خلفتها، هنا
وهناك، والردود الفعلية التي نشأت عنها أمس واليوم...

وبقطع النظر عن هذا وذاك، وبالإضافة إلى ما قدمناه من ملاحظات بشأن
شكلها ومضمونها، فإن ما يتبادر إلى الذهن عند تفحصها، هو دوراتها حول قطب
واحد يشكل مركز الجاذبية، ونقطة الدائرة، وأن هذا القطب الرئيسي، بفعل
تحركه وإشعاعه، واستبداده، وترواميه، وتسسلطه، بهذا وغيره، سرعان ما جر إليه

وجذب إلى مقابلته عالما آخر بخصائص وخصوصيات، فتحول هو الآخر بفعل الاستقرار والتحركات الجائرة إلى قطب ثان وجد نفسه مدفوعا، مرغما على المجاهدة ودخول المعركة لمقاومة الطغيان والدفاع عن النفس، ثم...

فنشأ عن ذلك ما ينشأ عادة من احتكاكات ومماحكات وملاجات وتبادل التهم والتراشق بالألفاظ والعبارات المسيئة القادحة فتسلح كل من الطرفين بسلاح الحق والباطل، وبسائر الوسائل التي من شأنها أن تضمن لكل منها النقاء، من حجج مقنعة دامغة، وأخرى مصطنعة واهية، حجج تمس الفكر والخلق، والوجدان، وتدور بالنسبة لموضوعها حول العقيدة، والعبادات والمعاملات، وسائر مظاهر سلوك الأفراد والجماعات...

وقد تحظى هذه المواقف المتضادة الكتابية، والشفوية بعناية الباحثين، والدارسين؛ فتدون بكامل التحري والموضوعية والأمانة العلمية "فتحافظ على شكلها، وجوهرها كما قيلت أو كما كتبت بدون زيادة ولا نقصان؛ وقد تسجل محرفة مشوهة مختزلة ومختصرة، فتخضع حينئذ لعامل الأهواء، والترعات الذاتية، والعواطف الجامحة المنحرفة، مما يؤدي إلى تعقيد العلاقات، وبالتالي إلى صعوبة الجوار، واستئناف التفاهم والتعارف، ولنا أمثلة كثيرة من ذلك، يمكن اقتباسها من المناظرات والخطب، والمحاضرات، والبحوث، والمقالات، وغيرها من النصوص التي تفيدنا في الموضوع، والتي تدل على ما يؤدي إليه هذا النوع من تحريف الكلم وتشويه الحقيقة لأغراض معروفة تنم عن سوء القصد والنية، لاشتعال نار الفتنة، وإيقاظ روح الحقد وتعمق الخلاف، وتوسيع الهوة بين الأطراف المتنازعة.

وكثيرة هي النصوص التي تنقل عبر الدراسات والبحوث المختلفة، بعد أن خضعت لعامل التبديل والتغيير بقصد التأثير والتوجيه نقلت إلينا بواسطة رواة لم تتوفر فيهم شروط العدالة والأمانة، فلم يتورعوا عن التقديم والتأخير، واختاروا

اللاجوء إلى عملية الإسقاط، والانتداب والتصفية، فبنيت على أحكامهم وأقوالهم والأمثلة التي اختاروها للتدليل والإقناع، تبت عليها مواقف ذهنية أخرى عاطفية أو سلوكية عملية لذلك يجب في مثل هذه الحالة أن نحذر كل الحذر وأن نشترط كل الشروط اللازمة لكي لا نقبل من هذه الأقوال والنصوص إلا ما كان مطابقا للواقع والحقيقة المجردة، أي ما كان خاضعا لعملية نقدية نزيهة، مبنية على التحري، والتدقيق، والتوثيق الضروري، لإصدار أحكام سلبية مجردة عن ما يشوبها من شوائب ضارة خصوصا في هذه المواضيع الشديدة الحساسية، والقابلة للتأويل والمساومة، فلنا مثلا أن نراجع ما جاء في بعض كتابات المستشرقين أنفسهم وما ورد في بعض كتابات العرب المسلمين في موضوع الاستشراق والمستشرقين لتأكد من أسباب بعض الخلافات الناشئة بين الطرفين و الأحكام الجاهزة الصادرة شأن كل منهما. فلنرجع إلى ما صدر عن رينان Renan وعن Lamens لامنس وعن شاخت Shakht ولنرجع أيضا إلى أنور الجندى، وإلى جورج زقزوق وإلى غيرهم وهم كثر لنأخذ فكرة عما نشر إليه بهذه المناسبة وبهذه الالتفاتة السريعة في انتظار تفاصيل كافية.

وفي انتظار ذلك نعود إلى مصطلحاتنا لنبدي بعض الملاحظات بشأن تكوينها وتطورها، فإذا ما أردنا أن نرتبها ترتيبا زمنيا، مراعين تسلسل ظهورها التاريخي، والمراحل التي قطعتها في تطورها وبروزها إلى الوجود، إلى مسرح السياسة والاجتماع، لو قمنا بذلك على وجه التقريب والإجمال، لاتضح لنا الخط الرابط بينها ولتأكدت لنا المسيرة التي صاحبها ابتداء من نقطة انطلاقها ومرورا بالأشواط التي طوقها إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم من تمحور وتركز أو انحلال وتفكك وتميع حسب الميادين التي نحاول خوض غمارها والقضايا التي تستلقت الأنظار، وتستقطب الأفكار، وتشجد العواطف والوجدان.

ولو تأملنا قليلا، وحاولنا الكشف عن خلفياتها، وعن مبرراتها ومعلقاتها، لوجدناها مرتكزة على أسس بيئية واجتماعية ولتين لنا أنها خلاصة لتفاعلات وتناقضات خاصة، فهي، والحالة هذه مرآة تعكس جوانب من ماضي بمثابة علاقة وثيقة تربط بين عنصرين واضحين، بين سبب ومسبب كما في اصطلاح الأصوليين؛ ومعرفة المسبب رهينة بمعرفة السبب إلى حد بعيد.

ومعنى ذلك أيضا أن المصطلحات التي نعنيها هنا، أي في ميدان الاستشراق، يمكن اعتبارها رموزا ينبغي فكها وتحليلها وإرجاعها إلى ما ترمز إليه في معطيات مختلفة بسيطة أو معقدة ، ومعنى ذلك مرة أخرى أنه لا بد من الرجوع إلى ماضي الأمة العربية الإسلامية و حاضرها لدراستها دراسة بيئية واجتماعية زمنية ومكانية، دينية ودنيوية، وتحليل المقومات البنيوية، والعناصر البشرية المشكلة لنسيج هذا المجتمع الكبير لشرائحه ولقصائله المتفاعلة داخله أو خارجه، أو المتصلة بمجتمعات أخرى تربطها به علاقات ودية أو عدائية روحية أو مادية.

إن تاريخ الأمم والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام إلى يومنا هذا، لحافل بالأحداث السلبية والإيجابية، والظواهر الثابتة، والمتحركة العابرة أو الراسخة، والعلاقات الداخلية، والخارجية التي، إن درست على أسس علمية أعطت من المعلومات، والحقائق ما يساعدنا على ضبط هذه الدراسة والإجابة على كثير من الأسئلة مطرحها لنفس الغاية، سواء أتعلق الأمر بمعرفة الأسباب التي أدت إلى تلك النتائج أي إلى تلك الرموز الألفاظ، أو لتأريخ هذه الأحداث وتتبع تصورها وزمن وقوعها والصيغ التي صيغت فيها والقوالب التي احتوتها.

وواضح من كلامنا هذا أن المصطلحات المعنية هي، ولا ريب وليدة عصرها وبيئتها نشأت في ظروف معينة، ظروف نفسية واجتماعية، سياسية وثقافية الخ... فتمت وتطورت وانتشرت انتشارا سريعا أو بطيئا حسب ما لحق بها من أحداث

فانتقلت عبر الأشخاص، والأفكار أو هي جميعها، عن طريق الرحلات، والكتب، والمراسلات وغيرها من الوثائق الإعلامية، والثقافية، والوسائل الحديثة السمعية والبصرية، فتلقفتها الألسن، وتداولتها الأقلام بشيء من المرونة، والليونة أو العنف، وشيء من التطرف والإباحية فأخضعتها لإيديولوجية معينة، وقيم مهيمنة فكيفتها، وطوعتها، ووظفتها لأغراض خاصة كل هذا واضح وغير خاف على القارئ والباحث في شؤون الحضارة والثقافة، الثقافة الوطنية، والثقافة الدخيلة الاستشراقية أو غيرها.

أما كيف برزت إلى الوجود؟ وما هي الطرق التي سلكتها في انتشارها وتطورها؟ والمنهجية التي اتبعها مروجوها، والمخططون لإذاعتها؟ وبثها كأفكار جاهزة يحمل الناس على تبنيها، لما تحمله من مبادئ وقيم؟ وما هي حملتها الإيديولوجية؟ الخ.. فهذه وتلك أسئلة ترتبط أيما ارتباط بموضوعنا، وتفرض علينا أن نقف عندها قليلا محاولين الإجابة عنها بشيء من التفصيل أو شيء من الاختصار، حسب ما تفرضه ظروف البحث والحدود التي رسمناها لإطاره.

ومهما كان الأمر، ومهما كان حجم الدراسة وأهميتها، فلا بد من الإشارات المقصودة الكافية في غياب البحث البسيط والتعميق، لربط القارئ حيناً بعد حين، بالخلفيات التاريخية، والمعطيات البيئية ليكون على بينة من العوامل الخفية والظاهرة، ويتبين الأسباب الكامنة والمبررة للظواهر التي يدرسها ويتبع تطورها. ونعني بذلك الأحداث والعوامل التي كانت وراء العلاقات بين الشرق والغرب، وبين بلاد العروبة والإسلام، وبين بلاد النصرى، ومن اعتنق مبادئهم، وسار في ركبهم جنباً إلى جنب مع حضارتهم وثقافتهم، ومعتقداتهم وانضم إلى صفوفهم، ووقف موقفهم من تراث الإسلام، وحضارته، ونظر إليهما نظرهم الخاصة، أي من زوايتهم، ومنظورهم وانطلاقاً من تكوينهم وفلسفتهم، والقيم التي يعتبرونها

قيما، والأخلاق التي يعتبرونها حسنة، والمقاييس التي يجدون فيها الإنصاف والعدالة، إلى غير ذلك مما سنعرض إليه في حينه.

إن هذه العلاقات قديمة عريقة من الناحية الجغرافية، ومن نواح متعددة اتسمت تارة بروح التفاهم والتعايش وتارة أخرى، -وذلك هو الغالب - بروح العداء، والكراهية، علاقات تمتد جذورها إلى ما قبل الإسلام، إلى العصور الجاهلية في الجزيرة العربية، وفي البلدان المجاورة أو المتصلة بها.

فالأطماع في السيطرة على العرب كانت جادة ومستمرة لاستعبادهم، واستغلالهم، والوصول عن طريق ذلك وغيره، إلى تحقيق مطامح مادية، وأغراض أخرى مختلفة. فالتاريخ شاهد على حملات اليونان والرومان، والغارات المتواصلة التي كان يشنها هؤلاء وأولئك على العرب، والأعراب على قبائلهم القاصية والدانية، الجائلة والمستقرة، التاجرة أو الراعية لإبلها، والمتنقلة عبر الوديان والصحاري بحثا عن الكأ، والمراعي الخصبة فكانت عرضة للنهب والسلب، والتمزيق، والدوبان في محيط الجائر المهاجم، فكان لابد والحالة هذه من القيام برد الفعل الضروري، للدفاع عن النفس، ومقاومة الظلم والطغيان، والحفاظة على الكرامة، ودفع عار الخزي والمهانة.

فكانت النتيجة حتما هي الحفاظ على المقومات الأساسية، والوجود الدائم في الوطن الأم.

تكفي الإشارة هنا إلى الدور الذي قام به الإسكندر الأكبر مؤسس الإسكندرية وإلى ما نتج يومئذ عن تحركاته، وسائر أنواع سلوكه وتصرفاته، من اتصال فكري واحتكاك لغوي بين سائر الأطراف المعنية، ويندرج تحت هذا كله وربما بالدرجة الأولى كثير من المعتقدات الدينية والطقوس الروحية، وأنواع العبادات، وسائر أنواع التعامل والعناصر الثقافية.

إلا أن ما يهنا هنا هو صدر الإسلام، في عصر النبوة والرسالة المحمدية، وعصر البعثة لطريقه، حيث اشتدت العلاقات، وتوثقت وأحكمت وبنيت على أسس جديدة.

فأصبح الصراع بين الإسلام والنصرانية قويا، وبلغ أشده في مكة وفي المدينة، فكان النبي صلى الله عليه وسلم في أخذ ورد، وجدال مستمر، مع أهل الكتاب وغيرهم، مبشرا، ومنذرا، وعاملا على تبليغ الرسالة المكلف بتبليغها إلى الناس أجمعين، لكونها رسالة شاملة عالمية، "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" صالحة لكل زمان ومكان، أي زمن النبي صلى الله عليه وسلم ومكانه، والأزمة والأمكنة اللاحقة إلى يوم الدين.

يوم كان صلى الله عليه وسلم يجاهد بقوله، وفعله، وإقراره وحركاته، وإشاراته، وسكناته، وتنقلاته وما اتصف به من صفات خلقية، وما اعتمد عليه من منهجية خاصة في الدفاع، والإقناع، والمقارعة، والمناظرة، والمجادلة وهو المأثور بالإرشاد، والهدى والنصيحة، وبيان ما أنزل عليه لكافة الناس "وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما أنزل إليهم ولعلهم يتفكرون" سورة النحل (44)

"وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه، وهدى ورحمة لقوم يرمون" فهو إذن المعنى بشرح الذكر الحكيم، وتفصيل مجمله، وتفسير مطلقه، وتخصيص عامه، وتبيين مراميه، ومقاصده، وإبراز حكمته، وتطبيق أحكامه، وتفسير آياته تفسيراً شفوياً وعملياً في سفره، وفي حضره، وفي سائر معاملاته، وسائر سلوكه، وفي سائر المجالات، والمواقف التي تتصل بحياته، وحياة أسرته الكريمة، والصحابة رضوان الله عليهم وسائر المؤمنين.

وهو إلى ذلك يدعو إلى التفكير والتدبر، والتفهم، واعتماد البراهين، واستعمال الحجج، فكان يجادل النصارى بالكلمة المقنعة المفسرة، والحسنة

ليقتنعوا ويرجعوا عن غيهم إلى الصواب فكانوا بطبيعة الحال مخاطبين، أي بطبيعة وضعيتهم، والوضعية الجديدة الناشئة عن الدين الجديد سيلجأون لسائر أنواع الأسلحة أسلحة الجدل للمهاجمة والدفاع.